الفصل العاشر

إيليـا [1] والغربان

لم يرد هـذا الفصـل فى النسخة المختصرة التى قمنا بترجمتها . وقد ترجمته عن الطبعة الأصلية واضفت الى هذا الباب ، نظرا لان موضوع الغراب يعد من الموضوعات الشائعة فى التراث الشعبى . وقد سبق ذكره فى اكثر من موضع فى فصل الطوفان الكبير .

ان أول رسالة أوحى بها الرب الى النبى ايليا ، وفقا لأقـوال المؤرخين العبريين ، هى تلك التى أمره فيها أن يذهب الى « أخاب » ملك بنى اسرائيل ويخبره أن أرضـه لن تـرى النـدى أو المطـر لعدة سنوات . وحيث أن النبى قد قام بتبليغ رسالة الرب ، فـان الرب لم يتركه يهلك فى هذا الجدب ، فلقد أوحى اليه الرب قائلا : « انطلق من هنا واتجه نحو المشرق وأختبىء عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن ، فتشرب من النهر . وقد أمرت الغـربان أن تعولك هناك . فانطلق وعمل حسب كلام الرب وذهب وأقام عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن . وكانت الغربان تأتى اليه بخبز ولحم صباحا ، وبخبز ولحم مسـاء . وكان يشرب من النهر ، وكان بعد مدة مـن الزمان أن النهر يبس لأنه لم يكن مطر فى الأرض » (٢) .

وعادة ما يرتبط نهر كريث فى الروايات الشعبية بوادى الصـلت الذى ينحدر شرقا من أرض الميعاد المرتفعة ، وينفتح على سهل الأردن

---

(١) هو الذى يسميه العرب النبى الياس .
(٢) سفر الملوك الأولى ١٧ : من ١ ــ ٧ .

غير بعيد من أريحا • وسواء أكان هذا الربط بين النهر والوادى من قبل المؤرخين صحيحا أم غـير صحيح . فليس هناك شك فى أن هذا المنظر الطبيعى ملائم للأسطورة كل الملاءمة • فهذه الوهدة تعد أكثر الوهاد قفرا وأكثرها سحرا فى فلسطين • وهى عبـارة عن أخدود كبير بير الجبال وتحيط به نتوءات الجبال العابسة • وهذا الأخدود ضيق للغاية الى درجة أن عرضه لا يكاد يبلغ عشرين ذراعا فى أسفله • وفيه يشق النهر مجراهوسط أجمة من الخيزران والأسل والدفل • وبذلك يقابل هذا الشريط الأخضر جوانب الصخور الجرداء التى تحيط به من كل جانب • وربما ذكرت المسـافر هذه الوهـدة بعمقهـا وضيقها . بالأخدود الشهير الذى ينشق بين الصخور الحمراء فى أرض البتراء (سلع) • وهناك فى بعض أماكن هذا الطريق الذى يقود الى أورشليم حتى وادى نهر الاردن . يتجلى للرائى منظر رائع لتلك الوهدة . فبعد أن يسير المسافر بضع ساعات فى هذا المكان المنعزل الذى يتميز به ذلك الانحدار بين التلال الجيرية ذات الأخاديد الجارفة . يشعر بالانتعاش لمرأى هذا الشريط الأخضر . ولصوت خرير المياه الذى يصعد اليه من أعماق هذه الوهـدة العميقة . حتى فى ليـالى الخـريف التى تعقب الصيف القائظ الجاف • فاذا نظر الى أسفل هذا الجرف الذى يصيب الانسان بدوران ، فربما وقع بصره على الغربان والنسور والصقور الضخمة ذات الشكل الأسطورى وهى تطير مندفعة الى أسفل •

وربما لجأ ايليا الى هذا المكان الأعزل الموحش الذى قلما تسقط فيه الأمطار على مدار السنة . الى أن تنقضى سـنوات القحط التى أوحى بها الرب اليه ، وأخبر بها الناس بدوره • وربما لم يخـالط ايليا أحدا فى هذا المـكان سوى الوحوش والطيور البرية •

على أن هذه الوهدة وسكانها لم يتغيرا من ذلك الحين حتى عصرنا هذا ، اللهم الا القليل • فما زالت الوعول تسكن صخورها . وما زال طائر القاوند يرفرف بأجنحته فوق مياهها العميقة ، وما زال الحمـام البرى يعشعش فى شقوق الصخور ، وما زالت الطيور السوداء تنشر

فوقه أجنحتها ذات البريق الذهبى عندما تتلألأ فى أشعة الشمس • واذا كان النبى ايليا هو أول من لاذ بتلك الوهدة البرية العميقة هروبا من الحياة ، فهو لم يكن آخر ناسك لجـأ اليها . فهناك وهنـاك يبصر الرائى فى أماكن قد يصعب على المسـافر الوصول اليها ، نقوشا على الصخور ، حيث كان النساك المتعبدون يتخذون مسكنهم . ثم اصبحت بعد ذلك حتى اليوم مسكنا للغربان والصقور والنسور •

وينفتح الأخدود الكبير فجأة على سهل الأردن عن طريق بوابـة طبيعية هى عبارة عن ذورة ذات شكل مخروطى من الحجر الجـيرى تقع على كلا الجانبين • وهنا يقود الطريق المسافر من أورشليم فجأة الى أحد المناظر الرائعة فى فلسطين • إذ يأخذ الطريق فى هذا المكان فى الانحدار المفاجىء الى أسفل مهبطه عند السهل • وعند ذاك يقع بصر المسافر على غابة مخضرة تتغذى أشجارها بالمياه الجارية التى تتدفق فى الوهدة ، وبمياه الينابيع الوافرة التى تتدفق من الصخرة الجيرية التى تقع فى الشمال على بعد • وتشغل هذه الغابة الدائمة الاخضرار التى تعـد مأوى لعدد لا حصر له من البلابل والطيور ذات الريش الجميل الذى يتألق فى الشمس بألوانه الخضراء والارجوانية والزرقاء ، مثل طائر القاوند الهندى ذى الريش الازرق وطائر التمرة الجميل ، تشغل جانبا من أريحا مدينة النخل • ويمتد خلف المدينة سهل منعزل ممتد يقطعه على البعد صف من الأشجار التى تشـير الى مجرى نهر الأردن وفيما بعد ذلك تشمخ منحدرات مواعب التى تكسوها الغابات بسلسلة جبالها التى تعلو فى حدة وسط السماء الصافية • أما فى الشمال فيمكن رؤية جبل كورانتا الذى يشتهر بغوايته فى الروايات الشعبية • وهـو عبارة عن تل ذى شكل مخروطى يعلو شرفات الصخور ويتوجه حطام كنيسـة • وتمتد فى الجوانب مياه بحر الميت الهادئة التى تحيط بهـا الجبال المنعزلة من كل جانب • فاذا كان النبى ايليا قد ترك صومعته فى الوهـدة ، واتجه الى أورشليم ، فلابد أنه قد أبصر أمامه هـذا المنظر بعد أن يكون قد اجتاز الممر الملتف العميق ، واستراح هنيهـة

ليلقى نظرة على الطبيعة من خلفه • ثم استأنف سيره بعد ذلك متجها الى أعلى حيث تقع المدينة •

وربما أوحى لكاتب حكاية اطعام الغربان لايليا ، وجود هذه الطيور بكثرة فى وادى الصلت ، لأن الغربان ، كما رأينا ، ماتزال تبنى أعشاشها فى هذا الأخدود ، ويمكن رؤيتها من أعلى وهى تحلق فى أجوائه • حقا ان الغربان تلفت نظر المسافر فى أنحاء هذه المنطقة المنعزلة التى تمتد من أورشليم حتى البحر الميت • وقد قال « كانون تريسترام» فى هذا الصدد : « ان مجموعات الغربان أكثر مجموعات الطيور غرابة فى هذا المكان ، وأكثر ما يميزه ، وأن يكن الصنف الصغير منها يفوق فى عدده الصنف الكبير • فهى قريبة فى كل مكان للعين والأذن ، كما أن رائحتها التى تفوح من حولها ، تذكر المسافر بتأثير وجودها فى هذا المكان • أما الصخب الذى تحدثه بنعيبها عندما تجلس حول المعبد — فيصم الآذان • فنعيب غراب القيلولة وثرثرة الغربان العادية تتحد معا فبغمر النعيب الأجش للغربان المسنة • على أن ألحان مئات من أنواع الغربان الصغيرة تعلو هذا الضجيج كله • ولقد تعودنا أن نرى هذا الجيش كل صباح عند الشفق ، عندما يمر فى صفوف طويلة فوق خيامنا متجها الى الشمال • وتقود غربان القيلولة الطريق على هيئة كتيبة واحدة متماسكة ، وخلفها على بعد منها ، تطير الغربان العادية فى شكل متفرق • وقبل أن تهجع هذه الغربان فى مرقدها ، تعقد اجتماعا صاخبا للغاية فوق أشجار جبل الزيتون وجبل قدرون • ولا يسكن هذا الصخب الا بعد غروب الشمس • وعند ذاك تختلط الغربان جميعا فى غير تميز وتأوى الى مهجعها فى المكان المقدس • « بل ان ان هذه الأنواع الثلاثة من الغربان تعيش فى الطرف الجنوبى من البحر الميت حيث تشرف قلعة ماسادا القديمة على برية من التلال الملحية القفرة الموحشة • ولقد كان بصرنا يقع على الدوام فى أثناء تجوالنا أسفل جبل سدوم الملحى ، على مجموعات من الغربان الكبيرة وهى تقبع على الصخور الملحية • ولايعرف فى الحقيقة سبب لتجمعها فى هذا

المكان ، اللهم الا اذا كانت ترغب في العزلة • وقد حدث ذات مرة ان أبصرنا وقت الغروب عند الجانب الشرقي من البحر الميت بجوار مكان كان لزمن قريب ساحة للقتال ، سربا من الطيور آكلة الجيفة التي اشتمت رائحة المعركة من بعيد فتدفقت الى هذه المكان من جهة الجنوب • فحيثما وجدت أجساد الموتى ، تدفقت النسور وكذلك الغربان والصقور والحدأ وغربان شمال البلاد العربية في شكل باقات » •

على أن الغربان قد قدمت للنبي ايليا في البرية خدمة غير مألوفة ، ذلك لأن الناس كثيرا ما كانوا ينظرون اليها بوصفها مصدرا للتكهن ، بل انهم كانوا يعتقدون أنها تمتلك قدرة على التنبؤ • فالاغريق كانوا يقدسون هذه الطائر ، ويربطون بينه وبين أبوالو اله النبوءة • كما كان العرافون الاغريق يستمدون النبوءة من نعيبه • وفضلا عن ذلك فان من كان يرغب في اكتساب قوة الوهية ، كان يأكل قلب الغراب ، معتقدا بذلك أن قلبه يحتوي على مقدرة على النبوءة • كما كان الرومانيون يعتقدون أن الغراب يستدعي سقوط الأمطار وهو يمشي متبخترا ذهابا وأيابا على الرمال • وما زال الناس في بعض جهات أوربا يعدون نعيب الغراب نذيرا بالموت • ويتصور الهنود الليلوويون الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، أن من يحرس الغراب روحه يكون ممتلكا لمنحة القدرة على التنبؤ ، فيستطيع بصفة خاصة أن يتنبأ بالموت وأحوال الجو • فالغراب يعد بحق في الأساطير التي تدور على الألسن بين القبائل الهندية التي تسكن غرب أمريكا ، أحد شخوصها الرئيسية •

ويرجع السبب في خلع هذه الفتنة السحرية وهذه القدسية على الغراب الى سلوك هذا الطائر الأفحم الذي يتسم بالحكمة والرزانة • فالغراب وفقا لكاتب مرموق « هو أكثر الطيور تطورا فيما يبدو • فلابد أنه كان يتبع الصياد والقناص فيما قبل التاريخ بحدة بصره وذكائه وشجاعته ، لكي يفترس نفاياتهما دون أن يتحرش بهما ، تماما

كما نجده فى عصرنا الحاضر يتعقب تحركات هؤلاء الناس لهذا الغرض نفسه • كما أنه كان يلازم رعاة العصور الأولى الذين لم يكونوا ينظرون اليه بغير اكتراث . حيث أنه كان يشتهر بما يشتهر به الآن من رغبة فى اقتناص الحيوان الضعيف وقتله • ومع ذلك فان الغراب لا يعتمد فى حياته على الانسان . حيث أنه يعيش حياته مستقلا عنه • وفضلا عن ذلك فان كثيرا من الشعوب منذ العصور القديمة كانت تحس ازاء هذا الطائر احساسا يشوبه التقديس أو الخرافة • وقد كان هذا الاحساس قويا الى درجة أنه كان يطغى على الاحساس بعدم الثقة . ولا نقول الكره . ازاء هذا الطائر • بل ان هذا الاحساس ظل ينتشر حتى أصبح يعيش فى بعض الأماكن حتى يومنا هذا •

ويحكى « بلينى » حكاية توضح بطريقة لافتة كيف كان الرومانيون ينظرون الى الغراب نظرة تقديس . عندما كانت روما فى أوج عظمتها • فقد حدث فى عهد الملك تيبيريوس أن غرابين ابتنيا عشهما على سطح معبد « كاستور وبواوكس » • وبعد مدة طار أحد هذين الغرابين . ومشى مختالا فى حانوت حذاء واتخذ فيه مسكنا له • ولم يجرؤ الحذاء على مضايقة الغراب حيث أنه كان ينظر اليه نظرة ملؤها الورع الدينى . أما لشخصه فى حد ذاته . أو لصلته بالمكان المقدس الذى كان يسكنه • وقد تعود هذا الغراب أن يطير من الحانوت كل صباح ويقف على المنبر الذى يقع فى الساحة العامة . ويحيى المارة السائرين الى أعمالهم بطريقة دمثة . ثم يقوم بتحية الامبراطور وولديه « دروزوس » « وجرماتيكوس » بصوت مميز ذاكرا أسماءهم جميعا . ثم يعود الى الحانوت بعد قيامه بواجب الكياسة على هذا النحو • وقد تعود الغراب أن يفعل هذا الأمر طيلة سنين عدة حتى تمكن حذاء آخر كان يجاور الحذاء الأول من قتل الغراب • وقد تصور الناس أن الحذاء قام بقتل الغراب اما حقدا على جاره الحذاء الذى كثر رزقه بسبب هذا الغراب . أو لأن الغراب نفسه أتلف له

أحذيته ، فقتله فى ثورة غضبه • ومهما كان الدافع ، فقد كان هـذا اليوم يوم شؤم فى حياة هذا الحذاء • ذلك أن الناس ذعروا لمـوت صديقهم القديم وهبوا فى ثورة غضبهم ، وطردوا الحذاء الجاحـد من حانوته ، ولم يقر قرارهم حتى سفكوا دم هذا الكافر • أما الغراب المتوفى ، فقد احتفل بجنازته احتفالا شبعيا حضره آلاف المواطنين • وقد حمل نعش الفقيـد على أكتاف اثنين من الأثيوبيين اللذين يشبهان الغراب فى سوادهما ، كما تصدر الجنازة عازف على العود وصـار يعزف بألحانه الرهيبة ، بينما حملت أكاليل الزهر من كل صنف معبرة عن مدى تقدير الشـعب وحزنه على هذا الفقيد • وبهذه الطريقـه المؤثرة سارت الجنازة الى القبر الذى شيد له على بعد ميلين من طريق « آبايان » • ويعلق المؤرخ على هذه الجنازة فيقول ، انها كانت جنازة لم يحتفل بها لأمير من قبل ، وان انتقام الناس من قاتل الغراب كـان أبشع من انتقام « سكبيون الافريقى » •

ومن الخصائص التى خلعت على الغراب مزيدا من التقـديس من وجهة نظر الشعوب ، مقدرته على تقليد صوت الانسان • ولم يؤكد هذه المقدرة « بلينى » وحده وانما حكى عنها كذلك الكتاب المحدثون • « فجولد سميث » يؤكد : « أن الغراب يستطيع أن يفعل ما يعجـز طير من الطيور الأخرى عن فعله معا • ففى وسـع الانسان أن يدربه على الصيد كما يدرب الباز ، وفى وسعه أن يدربه على أن يقتفى أثر الصيد وأن يحضره الى القناص كما يفعل كلب الصيد ، وفى وسـع الانسان أن يدربه على الكلام كما يـدرب الببغاء • ولكن ربما كان أغرب ما فى ذلك كله أن يدرب الغراب على الغناء فيغنى كمـا يغنى الانسان ، ولقد رأيت غرابا يغنى « بلاك جوك » بوضوح وصدق وروح مرحة » • وكذلك كتب « ياريل » فى كتابه « تاريخ الطيور الانجليزية » فقال : « ان الطيور الانجليزية التى تمتلك مقدرة على تقليد صوت الانسـان هى الغراب والعقعق وأبو زريق والزرزور • وقد روى عن مقدرة الغراب على تقليد صوت الانسان كثيرا من الحكايات • وربما

كانت الحكايتان التاليتان تعتمد فى روايتهما على الثقات الذين لا يشك فى صدقهم ، أقل انتشارا من غيرها من سائر الحكايات • فقد دربت الغربان على النطق بجمل قصيرة بوضوح كما يصنع مع الببغاوات • ومن بين هذه الأغربة غراب يمتلكه السيد « هنسلو » ، أحد أتباع القديس البان • فهذا الغراب يتحدث بوضوح الى درجة أننا عندما سمعناه لأول مرة خيل الينا أن هذا الكلام يصدر عن انسان • وهناك غراب آخر يسكن فى « كاثام » • وقد أبدى هذا الغراب مهارة فائقة فى هذا الأمر • ولما كان هذا الغراب يسكن بالقرب من بيت الحراس ، فكثيرا ما نادى على الحراس الذين حسبوه شخصا يستدعيهم للقيام بواجب الخفر » ••

ومن المحتمل كذلك أن عادة الغراب فى أكل أجسام الموتى قد ساعد على نظرة الناس اليه فى خوف ورهبة • فمن المألوف أن البدائيين كانوا يعتقدون أنه فى وسعهم أن يكتسبوا صفات الميت عن طريق أكل جزء من جسده • وربما تصورا على هذا النحو أن الطيور المفترسة التى تعيش على أكل الرمم ، تمتلك لهذا السبب صفة الحكمة وغير ذلك من الصفات التى كان يتصف بها الشخص المتوفى • وعلى هذا النحو يرجع تقديس كثير من القبائل التى تسكن افريقيا الشرقية للضبع ، الى هذه العادة الى حد كبير ، وذلك نتيجة التهام الضباع لأجساد موتاهم • فقبيلة « ناندى » التى يأكل أفرادها جزءا من جسد الميت ، وفقا لعاداتهم ، بقصد اكتساب خصائصه ، يقدسون الضباع لهذا السبب ، ويعتقدون أنها تتحدث على نحو ما يتحدث الانسان ، وأنها على اتصال بأرواح الموتى • فاذا توفى عدد كبير من الأطفال فى أسرة واحدة فان الأبوين يضعان المولود الجديد لبضع دقائق فى الطريق الذى تمر فيه الضباع ، آملين بذلك أن تتشفع الضباع للطفل لدى أرواح الموتى ، فتتركه يعيش • فاذا عاش هذا الطفل فانه يسمى باسم الضبع • وكذلك تنظر قبيلتا « باجيو » و « وانيا مويزو » ، وهما قبيلتان تسكنان فى افريقيا الشرقية ، الى الضباع التى ترمى اليها بأجساد الموتى لكى تلتهمها ، نظرة تقديس •

وكثيرا ما تعتقد هاتان القبيلتان أن عويل ضبع من الضباع فى المساء انما يشير الى صوت آخر شخص توفى فى الحى • ويقول « الوانيا ــ مويزيون » أنهم لا يستطيعون أن يقتلوا الضـــبع لأنهم لا يعرفون ما اذا كان هذا الكائن ينتسب الى أحد أقربائهم ، كأن يـكون هذا الشخص الغريب خاله أو جـــده ، أو لا ينتسب لهم • وربما كان مرد هذا الاعتقاد الى أن أرواح الموتى الذين تلتهم الضباع أجسادهم، تحيا بداخلهم مرة أخرى • وبناء على هذا ، فربما كانت عادة تعريض جسد الميت لهذه الحيوانات ، بالاضافة الى الاعتقاد فى انتقال روح الانسان اليها ، كافيا لأن يهيء للناس أن يتصوروا وجود علاقة بين الناس والوحوش والطيور المفترسة مثل الضـــباع والنسور والصقور والغربان • وما زال السؤال جديرا بالبحث حول مدى انتشار عادات الحيوانات الضاربة بحيث أنها يمكن أن تحيط الغراب بصفة خاصة ، بهالة من الاحترام بين عامة الشعوب •